

## المقالة العاشرة

فى قوله سبحانه: ﴿و لا يؤده حفظهما﴾

و فيه فوائد:

### الفائدة الأولى

#### فى اللغة

«لا يؤده» أى: لا يثقله و لا يشق عليه . يقال: آده، يؤده، أوداً: إذا أثقله و أجهده . و أدت العود، أوداً: إذا اعتمدت عليه بالثقل حتى أملتة . و [أدت العود] أؤده، فانآد . نحو: عجته فانعاج . و: الأود و الأوداء على وزن الأعوج و العوجاء و المعنى واحد . و الجمع: الاود كالعوج . و المعنى: لا يثقله و لا يتعبه حفظ السموات و الأرض .

### الفائدة الثانية

#### فى النظم

لما عظم الله تعالى أمر السماء و ما فيها و الأرض و ما فيها سابقاً بأن نسب و أضاف ما فى كل منهما الى ملكه و سلطانه، ثم عظم أمر الكرسي بأنه وسع السموات و الأرض، إذ كما أن الكرسي بطبيعته الجسميّة المحددة للأمكنة و الأزمنة محيط بما فى داخله - لا كمجرد احاطة الظرف بالمظروف محددًا كان المكان المحاط عليه أم لا، بل بأن لا يتعين للمحاط عليه مكان أو حيز أو وضع أو ما شئت فسمه إلّا بسبب طبيعة جسميّة بخصوصها - فكذلك بحقيقته العقلية و النفسية و روحه و قلبه الذى هو مستوى الرحمن مؤثرة فيما دونها من النفوس و الطبائع الفلكية و العنصرية و ملكوت العالم السفلى - من الجماد و النبات و الحيوان - و لذلك تنبعث الأرزق والآجال من هناك و ترتفع الدعوات لطلب الحاجات الى ذاك، فأراد أن يشير الى أن ذلك لا يشق عليه و لا ينوء به فقال: ﴿و لا يؤده حفظهما﴾ . أى: لا يتعب الكرسي و لا يشق على ظاهر حقيقته و باطن قلبه حفظ أجسام السموات و الأرض و حفظ نفوسها و طبائعها و صورها - إن كان الضمير راجعاً الى «الكرسي»، أو لا يتعبه تعالى حفظهما بالكرسي على الوجه المذكور - إن كان الضمير راجعاً اليه سبحانه - كما لا يؤد الروح الانسانى حفظ أسرار السموات و الأرض و معانيها التى أودعها الله فى السرّ الانسانى بقوله تعالى: ﴿و علّم آدم الأسماء كلّها﴾ (البقرة: ٢) : (٣١) .



و تحقيق هذا المطب يحتاج الى مزيد تقرير له ليظهر لك بالبرهان كيفية دوام الممكن بدوام علته الفياضة من غير تعب و ملال و أودة و كلال، و هذا هو الذى وعدناه آنفاً، فاستمع و عه .

### الفائدة الثالثة

#### [الكبرى صورة رحمانية الله تعالى]

اعلم أن للحق تعالى أسماء و صفات، و لكلّ منهما مجالى و مظاهر فى كلّ من العوالم، من أحصاها - أى عرفها و عرف لوازمها و آثارها و بدايتها و غايتها - و جبت له الجنة، و هى الكمال العلمى العرفانى، أى العلم بحقائق الأشياء كما هى عليها الموجب لمشاهدة المثل العقلية و الأشباح الجنانية الموعودة - انشاء الله - جزاء لصالح العمل و مرضى السعى .

فكما أن عالم الجبروت من الملائكة العقلية - بجملة عددها الكثيرة و ضروبها التى لا يحيط بها غير الله - هو عالم قدرة الله تعالى و مظهر جباريته و مستوى اسم «الجبار»، كذلك «عالم الكرى» بجملة ما فيها من ملكوت السموات و الأرض «عالم رحموته» و مظهر رحمانيته و مستوى اسم «الرحمن»، إذ برحمته قامت السموات و الأرض، فالكرسى صورة رحمانية الله تعالى على الخلائق و بها يعطف بعضهم بعضاً بالترتيب الحكيمى و النظم السببى والمسببى، فلكلّ سبب خاص عطوفة و رحمة على مسببه بايجاده واقامته و حفظه و ادامته .

ثم اعلم أن العلة الفاعلية بحسب المشهور على ضربين :  
أحدهما : الفاعل الذى يحتاج فى فاعليته الى حركة و آلة و قابل كالكاتب و البناء و مثل هذا الفاعل يقال له فى عرف الالهيين بـ «المعدّ» و «المحرّك» و هى العلة بالعرض .  
و ثانيهما : الفاعل الذى لا يحتاج الى حركة و آلة جسمانية و قابل و هو الفاعل فى عرفهم و إن سئلت الحق فليس الفاعل بالحقيقة إلّا ما هو برىء بالكلية عن جهة الامكان، و ما هو إلّا الواحد الحق - كما مرّت الاشارة اليه .

فالفاعل بالمعنى الأوّل لتعلقه بالمادة الجسمانية و تحرّكه عند تحريكه يلحقه لامحالة كلال و أعياء و دثور و فناء، لأنّ الجسمانيات متناهية الذوات، متناهية القوى و الانفعالات، كما أنّها متناهية الامتدادات و الاتصالات، فيصحبها الكلال أوّلاً ثمّ الزوال ثانياً، وقد صرّح بعض الحكماء بأنّ الفاعل الجسمانى قابل فى الحقيقة لفعله لمباشرته



إياه، وأما القوى الفعالة المتقدّسة عن شوب الانفعال المادى، المرترفة عن حضيض العالم السفلى، فهى مسلوّبة التغيّر عن حالها، ممتنعة التجدّد فى فعالها، بريئة الذوات عن لحوق معنى عارض يوجب كلالها و ملالها، أو مضادّ مفسد يقتضى فسادها وزوالها.

فهى وسائط فيض الحق و روابط جوده و مكثرت جهات رحمته و مفتن شعوب فضله وجوده، فهى بالحقيقة عباد الرحمن المؤتمرون بأمره، المتزجرون بنهيه و زجره، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون﴾ (التحریم: ٦٦).

بخلاف الفاعل بالمعنى الأوّل، فإنّه لوقوعه فى عالم الأضداد و تصادم صور المواد ربّما يعوق عن فعله المقصود لمانع، و يقطع عن طريقه المصمود اليه لقاطع. و إن أردت زيادة التوضيح فقد أودع الله تعالى فى نفسك هذين الضربين من التأثير، أى: الابداع و التحريك و هو المسمّى بالاحداث أيضاً، لأنّ الحدوث يعرض الحركة بالذات و لمّا يقترنه بالعرض.

ف«الابداع» ايجاد شىء لا عن شىء، و مثاله فيك تصورك للأشياء بقوتك المصوّرة و مثولها بين يديك فى عالمك الخاص على وجه يكون وجودها لك نفس مشاهدتك إيّاها، و «الاحداث» هو جعل الشىء شيئاً، و مثاله فيك تكلمك و كتابتك بالآلات و أسباب طبيعّية أو غيرها.

ففى الضرب الأوّل لا يصرف منك شىء إلّا مجرد الالتفات و العناية، و فى الثانى يصرف منك المادة و الآلة و الزمان و القوة شيئاً فشيئاً، فيحصل منه المفعول تدريجاً و يكمل عند انقضاء الحركة و الزمان، و هما مقدار خروج المادة الى الفعل، و توجه القوة و الآلة نحو الكمال، تقرّباً الى المبدأ الفعّال.

فاذا علمت هذين الضربين من الفاعليّة، و علمت خصوصيّة كلّ منهما و امتيازه عن صاحبه بخواص و لوازم، ظهر لك أنّ التعب و المشقة و الأودة لا يعرض إلّا لفاعل جسمانى لا يفعل إلّا بأن يفعل و يتحرّك من حال الى حال، و يكون فاعليّته على سبيل المباشرة. و أمّا الذى فاعليّته لشىء بحيث إذ أراد أن يقول له: ﴿كن فيكون﴾، أى يكون مجرد ارادة الفعل منه مقتضياً لحصول فعله من غير أمر زائد يكون متوسطاً بينه و بين فعله - كايجاده تعالى عالم الأمر أو يكون الوسط حاصلًا بأمره من غير مدخليّة مادة و استعداد و حركة كايجاده لجواهر السموات و الأرض بواسطة أمره - أو مع مدخليّتها - كايجاده حوادث الفلكيّة و الأرضيّة بافادة الاسباب و افاضة الاستعدادات و الحركات من غير تغيّر فيه

تعالى، و اليه أشار بقوله سبحانه: ﴿و لا يؤده حفظهما﴾ اى لا يتعبه ادامة جواهر ما فى السموات و ما فى الأرض . هذا، إذا كان الضمير المفعول كناية عنه تعالى، و أما إذا كان راجعاً الى «الكرسى»، فالحكم بعدم عروض التعب و المشقة ثابت للكرسى، لأنه بحقيقته و ذاته من وسائل جوده تعالى و ربانيته و جهات كرمه و رحمانيته التى لا تبید و لا تنقص أبداً، فلا يلحق له مشقة و تعب، و إذا لم يحصل له فاستحال حصوله للحق بالطريق الأولى . و بالجملة كل ما هو علة لشيء بالحقيقة و الذات - لا بحسب القسر للاعداد و الاستعداد فيكون المعلول من توابع ذاته و رشحات وجوده بمنزلة الظل للشخص، فكما لا يثقل و لا يشق وجود الظل على الشخص و استتباعه إياه، فكذلك المعلول بالقياس الى ما هو علة له بالذات، و هذه الأسباب التى يظن الناس أنها علة إنما يؤدها وجود ما ينسب اليها، لأنها ليست عللاً بالحقيقة، بل بحسب المجاز، و ما هو علة بالحقيقة لا يلحقه الفتور فى تأثيره، اللهم إلا أن يكون بحسب نفس الأمر ناقصاً ضعيف الوجود .

فاعتبر بالكتابة الصادرة من الكاتب، فإن جوهر الانسان كاتب بالعرض لا بالذات، و لهذا يلحقه التعب و الملل، و أما الكاتب بما هو كاتب - و هو أمر مركب من جوهر الانسان و أمور أخرى، بعضها نفسانية و بعضها طبيعية و بعضها خارجية من الآلة و الحركة و القابل و غيرها - فلا يحصل التعب للجموع إلا من جهة تصادم وقع بين أجزائه، و تعارض قد حصل فى العضو الواحد بين مقتضى الطبيعة و مقصود الارادة، فإن مقتضى الطبيعية التى فى العضو الثقل أى الميل الى مركز العالم و مقصود الارادة الحركة الى جهات مختلفة فيحصل له الأعياء، فيميل الانسان من الكتابة قبل أن يحصل بها الاكتفاء و عنها الغناء، و أما الأمور التى تجرى مجرى التصورات المحضة و التمثلات، فحصولها من الانسان لا يشق عليه، لأنها إنما صدرت منه بجهة واحدة فاعلية ذاتية من غير تعارض الجهتين، فيكون هناك نفس التصور و الارادة الشوقية نفس الحصول فى صقع من النفس .

فمن هذا السبيل يجب أن يعتقد فاعليته تعالى للأشياء و فاعلية ملائكته المقربين و ملائكته المدبرين، فإن صدور الموجودات عنه تعالى - كلية كانت أو جزئية، روحانية كانت أو جرمية - نفس تعقله إياها كما حقق فى موضعه، و كذا فاعلية من هو فى عالم جبروته و صقع ملكوته، فمن اعتقد فاعليته تعالى على هذا الوجه و أعلى منه آمن من التجسم فى حقه الموجب للعذاب الأليم .